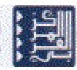
مجموعة مؤلفين

التأريخ العربي وتاريخ العرب كيف كُتب وكيف يُكتب؟ الإجابات الممكنة



المركز العربي للأبحاث و دراسة السياسات
Arab Center for Research & Policy Studies

الفصل الثالث والعشرون

صورة البيزنطيين في الحضارة العربية من خلال اللغة

محمد الطاهر المنصوري

سبق لي أن عالجت صورة الروم من خلال المصادر العربية. وقد نشرت هذه الدراسات، سواء في فرنسا أم في اليونان أم في تونس، تناولت فيها جوانب مختلفة من الحياة السياسية والعسكرية، ومشاهد الحياة اليومية في بيزنطة كما صوّرها العرب، أو كما تصوروها في بعض الأحيان. وتبيّنت من خلال ذلك أهمية المرجعية الذاتية العربية في تقديم الآخر من حيث المظهر والسلوك واللون والمعيشة؛ فكل ما لم يكن متماشيًا مع الروح العربية لم يكن مقبولًا، إما لأسباب دينية وإما لأسباب حضارية موروثة. ولكن نلاحظ في الوقت نفسه تأكيدًا عربيًا لكثير من العناصر المحمودة في الحضارة البيزنطية، إما لأنها لم تكن موجودة عند العرب وإما لحاجتهم إليها، في تبرير بعض المظاهر الحياتية، للقياس على ما هو موجود عند البيزنطيين الذين تقدمهم النصوص العربية دائمًا على أساس الأقدمية والأسبقية في الزمن، ونحن نعرف أهمية الأسبقية في التراث العربي الإسلامي، أو حتى في بعض المجالات المعاصرة لنا.

ساعدت هذه الاعتبارات كلها على بناء صورة الروم كآخر ذي مميزات وخصائص، فيها ما هو خير وفيها ما هو شر، فيها ما هو محمود وفيها ما هو مذموم، من منطلقات دينية نشط فيها الإسلام المركز المرجعي، ومن منطلقات سياسية عسكرية: فالروم «أعداء مشركون» وأجوار لم تنقطع جسور الاتصال بهم في أيام

السلم كما في أيام الحرب، ولم تمنع العداوةُ من تقليدهم في كثير من الأمور والأخذ من حضارتهم من دون تحفظ.

لست اليوم متحدثًا عن هذه الموضوعات التي نُشرت، ولا يستحسن تكرارها، وإنما سأتناول جانبًا آخر من الصورة البيزنطية في الحضارة العربية لم ينل حظه من الدراسة، أكان من اللغويين العرب أم من المؤرخين، وهذا الجانب هو انتقال اللغة البيزنطية، وهي يونانية العصر الوسيط، إلى القاموس العربي وانصهارها فيه كما لو أنها منه.

سأعالج جانبًا من هذا الموضوع في انتظار توسيع مجال البحث، وهذا الجانب هو كيف عبّر العرب عن البيزنطيين؟ أبلغة العرب أم بلغة الروم؟

يبدو من خلال المصادر العربية المختلفة أن العرب عبّروا عن الروم بلغة العرب، بما في ذلك من تعريب للمصطلحات والتسميات اليونانية. ويتبيّن من ذلك أن التعبير عن الآخر بلغة غير لغته لا يمكن أن تكون خالية من التحريف والتغيير. وكل لغة لا تستطيع أن تعبّر بدقة عن واقع الآخر، وإنما تسعى إلى البحث عن بدائل أو عن مطابقات في لغة المتحدث. ويبدو من خلال النصوص أن العرب كانوا يدركون هذه المسألة، فنراهم يسعون إما إلى تعريب الواقع البيزنطي وتقريبه من ذهنية العربي، وإما إلى دمج المصطلحات اليونانية في اللغة العربية بصورة مباشرة، مع ما يقتضيه ذلك من تعريب الحروف والنطق. وربما يعود ذلك إلى عدم توافر المصطلحات اليونانية الملائمة والمؤدية للمعنى في اللغة العربية، من غير أن ننسى انفتاح العرب على الآخر والأخذ بلغته لوصفه والتعبير عنه، وربما أيضًا في إطار إبراز قدرة العرب على هضم لغة الآخر والتخاطب معه على مستوى الندية، وربما بروح التفوق والمنافسة في فترة تنافس فيها البيزنطيون والعرب المسلمون في الميادين المختلفة، معتمدين، كل من جانبه، على مركزية «الأنا» وطرفية «الآخر». وقد ساعد وجود جوالٍ رومية في العالم الإسلامي الوسيط ووجود علاقات متصلة بين الجانبين على انتشار المصطلحات والكلمات اليونانية في قاموس العرب. ويظهر هذا التداخل اللغوي بين العربية واللغة اليونانية في مجالات كثيرة، اهتم بها الكتاب العرب، من ذلك:

أولًا: التسمية العامة

لئن دأب العرب على أن يُطلقوا على الآخر صفة المشرك أو العلج، أو صفة الحربي نسبة إلى دار الحرب، فإنهم استعملوا تسمية الروم للتعبير عن البيزنطيين. ووردت هذه التسمية في شعر ما قبل الإسلام، وهذا أمر يبدو طبيعيًا، باعتبار انخراط جملة من القبائل العربية في الحضارة الرومية ثقافيًا واقتصاديًا وسياسيًا. كما أنها وردت في القرآن؛ إذ يبدو أن الروم هم الوحيدون من ضمن الشعوب المعاصرة لنزول الوحي الذين خصهم القرآن بسورة، ألا وهي سورة الروم، وفيها ثلاث آيات تتعلق بهم مباشرة: ﴿الم . غُلِبَتِ الرُّومُ . فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾ (الروم: 1-3)، وهذا اعتراف ضمني بحق الروم في البقاء والتجدد، إذ من بعد غلبهم سيغلبون. أما الآية الثانية والعشرون من السورة عينها، فإنها تقر بالاختلاف بين الناس كمعجزة من المعجزات الإلهية، فتقول: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾ (الروم: 22). كما أن الصفة نفسها وردت في الحديث.

إذا نظرنا إلى النصوص المؤسسة للحضارة العربية الإسلامية، لقلنا إنها أطلقت على الروم التسمية الرسمية التي اعتمدها هؤلاء للدلالة على أنفسهم. وتأسيًا بالنص القرآني وبالحديث، دأب العرب على استعمال التسمية نفسها في المراحل المختلفة التي مرّ بها تاريخ الإمبراطورية البيزنطية منذ نشأتها حتى سقوطها.

إن كانت هذه التسمية في بداية الإسلام تبدو عادية، فإنها أخذت شكلًا أيديولوجيًا منذ منتصف القرن الثامن الميلادي؛ إذ برز الغرب المسيحي في ظل الدولة الكارولنجية قوةً سياسية وعسكرية تسعى لتجديد البيزنطيين من هذا اللقب ونعتهم بالإغريق. ولا يحق لهم استعمال هذه التسمية، لأنها تعود وجوبًا إلى من يتحكم في مدينة روما. وفي هذا الإطار، يصبح لاعتماد تسمية البيزنطيين بالروم قيمة أخرى إذا عرفنا ودية العلاقات التي كانت موجودة بين العباسيين والكارولنجيين.

بلغ التنافس والصراع من أجل هذه التسمية أوجَه بعد عام 800، عندما حمل شارلمان لقب إمبراطور روما، وكان لذلك وقع كبير في الإمبراطورية البيزنطية؛ إذ

أصدر الإمبراطور نيسيفور الأول مرسومًا أكد فيه رومية الروم، وقدّم في الوقت نفسه تنازلًا للعرب لم يقدمه أحد من قبله، كما لو أنه كان يسعى للحفاظ على تسمية الروم بهذه التسمية في الدولة الإسلامية. وقد أورد المسعودي في عرض حديثه عن أباطرة الروم، فكتب: «كانت ملوك الروم تكتب على كتبها من فلان ملك النصرانية، فغير ذلك نقفور وكتب ملك الروم، وقال هذا كذب ليس أنا ملك النصرانية، إنما ملك الروم ... وأنكر على الروم تسميتهم العرب - ساراكينوي - تفسير ذلك عبيد سارة طعنًا منهم على هاجر وابنها إسماعيل، وأنها كانت أمة لسارة وقال تسميتهم عبيد سارة كذب...». ويبدو من خلال المصادر أن العرب كانوا على وعي بالإحراج الذي يشعر به البيزنطيون أمام سعي المسيحيين الغربيين لتجريدهم من إرث روما في شكله المعنوي. وكان الشعور بإرث روما أكبر من الشعور الديني أو من السعي إلى تزعم المسيحية. ولعل إصرار العرب على استعمال هذا المصطلح للتعبير عن دولة لهم معها عداء مستفحل، يدخل في باب معرفة الإمبراطورية البيزنطية من ناحية، ويدخل من ناحية أخرى في إطار نوع من الاعتراف المتبادل بين الحضارتين، وسعيًا للإبقاء على علاقات ضرورية. وقد بيّنت الفترات اللاحقة إصرار الروم على تمسكهم بهذه التسمية ومعاضدة المسلمين لهم في ذلك، وهو ما سيكون له أثره في التقارب الذي حصل بين الحضارتين في أثناء الحروب الصليبية، إذ سيقف الروم المسيحيون الشرقيون في بعض الأحيان إلى جانب المسلمين في وجه الصليبيين، أكان بتبادل المعلومات المتعلقة بتحركات الصليبيين أم بمنعهم من التزود من الأراضي البيزنطية في أثناء عبورهم في اتجاه العالم الإسلامي.

ثانيًا: المؤسسات السياسية

إضافة إلى التسمية العامة، اهتم العرب، من خلال الكتابة، بجوانب أخرى من الحياة البيزنطية، فذكروا المؤسسات البيزنطية من دون تحريف كبير لها، ومع دقة وضبط في بعض الأحيان أخلت به بعض الكتابات البيزنطية.

1- الإدارة المركزية: الإمبراطور واللُّغُثيط

وردت في النصوص العربية أسماء الأباطرة تباعًا في أغلب الأحيان، وفي شكل قوائم يُذكر فيها الاسم والنسب والفترة الزمنية للحكم، مع لمحة من

الحوادث التي وردت في عصر هذا أو ذاك من الأباطرة. كما وردت التسميات الرسمية المختلفة، مثل قيصر أو أغسطس أو أغسطة أو طاغية، وهي ألقاب كثيرًا ما استُعملت في القسطنطينية للتعبير عن الإمبراطور. إلى جانب ذلك، قدم بعض النصوص صورة عن ممارسة الحكم وانتقال السلطات وشروط الولاية بما يتوجب من دقة، فذكر ابن خرداذبة في كتاب **المسالك والممالك**، وهو كتاب ألّف بطلب من الخليفة العباسي المعتمد في منتصف القرن الثالث الهجري (النصف الثاني من القرن الثامن الميلادي)؛ إذ يقول: «والملك أكبر الروم في أنفسهم وأعزُّه عليهم وليس الملك فيهم وراثة ولا كتاب متبع، إنما هو غلبة، وقد ملكهم رجال ونساء وملكهم يدعى باسيلي ولباسه الفُرفير، صنف من الحرير فيه لمع إلى السواد قليلًا، ولا يلبس الفُرفير والخف الأحمر إلا الملك، ومن تعرض لذلك قتل... وأكبر البطارقة، خليفة الملك ووزيره اللُّغُثيط وصاحب ديوان الخراج وصاحب عرض الكتب والحاجب وصاحب ديوان البريد، ثم القاضي وصاحب الحرس...».

إذا تصفحنا تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، فسنجد أن هذه التسميات يونانية، مثل عبارة باسيلي التي هي في الواقع عبارة بازيلوس، ونقول إن عبارة لُغُثيط هي العبارة اليونانية نفسها، وكلتا الوظيفتين من الوظائف السامية في الإمبراطورية والمتصلة مباشرة بالعالم الإسلامي. وإذا كان اللُّغُثيط في الإمبراطورية هو مركز القرار في الحرب والسلم أو تبادل الأسرى أو إصدار المراسيم والرسائل، فاللُّغُثيط هو المسؤول الأول عن إرسال الرسائل وعن استقبال السفراء والموفدين من العالم الإسلامي إلى القسطنطينية. ويحدث أيضًا أن يقع اللُّغُثيط في الأسر، فتمثّل فديتهم قيمة معتبرة في الدولة الإسلامية، خصوصًا في العهد العباسي؛ إذ كثيرًا ما فُدِيَ اللُّغُثيط بألف أسير من المسلمين. وإن تركيز النصوص العربية على مثل هذه الوظائف دليل على رمزيتها السياسية وعلى أهميتها بالنسبة إلى العلاقات الإسلامية - البيزنطية. ومن دون أن نذكر الصورة التي كان هؤلاء عليها، وكنا نشرنا ذلك سابقًا، فإن المصطلحات الرسمية المستعملة من العرب تكتفي في كثير من الأحيان بالإشارة إلى هذه المؤسسات من دون إطناب، وهو ما سيتغير بعد بداية الحروب الصليبية؛ حيث إن معرفة المسلمين بالدولة البيزنطية نضجت، وتكوّن لديهم رصيد معرفي في هذا المجال بتعدد المبادلات والاختلاط البشري بفعل الحروب والأسر والتجارة وانتقال العبيد. لذلك، نجد تعدادًا في المصطلحات

المستعملة في الأوساط الرسمية، على الأقل، إذ يذكر ابن فضل الله العمري في كتاب التعريف بالمصطلح الشريف نماذج للمراسلات الصادرة عن دولة المماليك في اتجاه كثير من بلدان العالم، ومن ضمنها الدولة البيزنطية، فيقول: و«رسم الكاتبة إليه [أي الإمبراطور البيزنطي]... الملك الجليل، الخطير الباسل، وارث القياصرة القدماء، محيي طرق الفلاسفة والحكماء والعالم أمور دينه، العادل في ممالكه، معز النصرانية، مؤيد المسيحية، أوحد الملوك العيسوية، آخر ملوك اليونان، ملك ملوك السريان، ثقة الأصدقاء، صديق المسلمين، أسوة الملك والسلاطين...».

إذا لم تعنِنا الأوصاف الحميدة التي أُسبغت على الإمبراطور البيزنطي، يمكن القول إن الموقف الرسمي في مصر من خلال النص يؤكد حسن العلاقات، وينم عن معرفة عميقة بتاريخ الدولة البيزنطية وجذورها اليونانية، وأقدمية الملك فيها، وأسبقية الإمبراطور على معاصريه في هذا المجال.

يحدث أن يستعمل الكتّاب والمؤرخون ألقابًا عائلية عوضًا عن الألقاب الرسمية، ظنًا منهم أنها ألقاب وظيفية مثلما هو الشأن في عبارتي باسل وباسيلي؛ فهي تعني في الوقت نفسه الإمبراطور باللغة اليونانية، وتعني اسم علم شائع في الحضارة اليونانية. وقد اشتهر من ضمن من حملوا هذا الاسم باسيل الأول، مؤسس العائلة المقدونية عام 867، وحفيد من أحفاده، وهو آخر من حكم الإمبراطورية من أبناء هذه العائلة، نعني باسيل الثاني المتوفى عام 1025. ومعنى باسل في اللغة العربية هو ذو البأس والصمود، ولعل ذلك مرتبط بما اتصف به هذان الرجلان من الشجاعة والشدة في الحروب، سواء ضد المسلمين أو ضد البلغار، فغلب الاسم على الكُنية وتحول إلى كنية رسمية يلقَّب بها الأباطرة.

أما الاسم الثاني، فهو الأشكري، وهو اسم لعائلة حكمت إمبراطورية فينيقية في ما بين عامي 1208 و1258، بعد تفكيك الإمبراطورية إلى أربعة كيانات عقب توقف الحملة الصليبية الرابعة في القسطنطينية. وأصبح هذا الاسم في ذهن المؤلفين منذ بداية القرن الثالث عشر حتى سقوط القسطنطينية في عام 1453، مستعمَلًا كلقب رمزي في حين أن العائلة التي كانت تحمله انقرضت بعد اغتصاب السلطات من ميخائيل الثامن باليولوق في كانون الأول/ ديسمبر 1258. وعمومًا،

يمكن القول إن العرب عبّروا عن واقع السلطات العليا في الإمبراطورية باستعمال المصطلحات نفسها المتداولة في القسطنطينية ونجد:

2- المؤسسات العسكرية

إلى جانب المؤسسات السياسية، اعتنى العرب بالمؤسسة العسكرية لأسباب لا تخفى في عصر متميّز بالصراع وتتالي الحروب. وتُعتبر المعرفة العسكرية عنصرًا من العناصر الضامنة الانتصار، أو المساعِدة على ضمانه. لذلك، نجد وصفًا دقيقًا للجند البيزنطي وتنظيمه وتوزّعه في فضاء الإمبراطورية، ومن ذلك الرتب العسكرية باللغة اليونانية بصورة متسلسلة كلّما كان هناك مجال للحديث عن ذلك، وفي بعض الأحيان ورد ذكر موظفين في الجند البيزنطي، أكان بمناسبة الحروب أم عند إطلاق سراح الأسرى.

من الرتب العسكرية رتبة الدمستق، أي صاحب المسالح، على حد تعبير قدامة بن جعفر، وإن خلطت النصوص العربية في بعض الأحيان بين الدمستق والإمبراطور في الفترة المتأخرة من العصر الوسيط، أي بعد منتصف القرن الثاني عشر، ويرجع ذلك إلى استحداث وظيفة جديدة في الدولة البيزنطية هي وظيفة دمستق الشرق والغرب، كقيادة عامة للجيش. ويبدو الدمستق شخصية مهمة؛ إذ كثيرًا ما ورد ذكره في النصوص العربية الأدبية والشعرية على حد السواء، لأنه مباشر العمليات العسكرية على حدود الدولة الإسلامية في العهد العباسي أو في زمن انفصال بني حمدان عن بغداد. ويبدو الدمستق شخصية مؤثرة في العلاقات السياسية الإسلامية - البيزنطية حتى أن وفاة بعض من اشتغل في هذه الوظيفة كانت تسر لها نفوس المسلمين، فتُعلَن وفاته من أعلى منابر المساجد. وقد احتفظت النصوص ببعض الأسماء، مثل قرقواس، وهو يوحنا قرقواس الذي قاد حملات عسكرية مدمرة على الحدود الشمالية لبلاد الشام، فأسر في عام 934 كثيرًا من سكان مدينة ملطية، وأجبر من بقي منهم على اعتناق المسيحية. وينتمي هذا الدمستق إلى عائلة من كبار العائلات المستقرة بالقرب من منطقة الثغور، خصوصًا ثغر ملطية.

أعطت هذه العائلة مجموعة من القواد العسكريين في رتب مختلفة، مثل يوحنا ورومان الذي ذكره أبو فراس الحمداني في مناظرته الشهيرة مع

الدمستق بينما كان في أسره في القسطنطينية. ولم تكن وظيفة الدمستق قبل القرن الحادي عشر وظيفة مركزية، بل وجِدت في عواصم الولايات التي تطلق عليها نصوص العصر الوسيط عبارة «البنود والأعمال». وفي ما يتعلق بالشام، فتسميتها بـ «الأجناد»، وعرّبها معاصرونا بنظام الثيمات التي هي عبارة عن وحدات إدارية يضطلع فيها الدمستق أو البطريق أو الستراتيقوس بالوظيفتين، المدنية العسكرية.

ركّز العرب، في إطار اهتمامهم بمعرفة الآلة العسكرية البيزنطية، وكذلك معرفة مقاييس المبادلات عند فدية الأسرى، على معرفة الرتب العسكرية المختلفة في الجهة المقابلة؛ إذ نجد تعدادًا لهذه الرتب وعدد الجند الخاضعين لكل رتبة، وكيفية توزعهم داخل المجال البيزنطي؛ ففي الجهة الغربية للإمبراطورية، كان عدد الجند ما يقدَّر بأربعة وعشرين ألفًا بين فارس وراجل، في حين كان عددهم في الولايات الآسيوية المجاورة والمقابلة للعالم الإسلامي يقدَّر بنحو سبعين ألفًا، باستثناء من تُطلق عليهم النصوص اسم المطوعة. وطبيعي جدًا أن تكون معرفة هؤلاء معرفة دقيقة، إذ نجد تفصيلًا للفرق العسكرية وقياداتها مثل: البطريق، الطرماخ، القنطرخ، القومس، الباسليق، الماجيستر سالشاجرد.

كان العرب يعرفون جيدًا أيضًا التنظيم العسكري للمطوعة؛ إذ يقول عنهم ابن خرداذبة: «وليس للروم في عساكرهم أسواق، إنما يحمل الرجل من منزله كعكه وزيته وخمره وجبنه»، وهذا الأسلوب هو في واقع الأمر ما يمكن أن يسمّى الإقطاع العسكري الذي رُكز في الإمبراطورية منذ بداية القرن السابع، ويتمثل في تجنيد الفلاحين وتمكينهم من إقطاعيات يستغلونها بشروط مختلفة، وأساسها الخدمة العسكرية، وهي وضعية امتهنها العرب واعتبروها من نقاط ضعف العدو؛ إذ نجد في مجادلة وقعت بين سفير بيزنطي ومحمد بن عبد الملك الزيات، وزير معتصم، دار فيها الحديث عن الخراج والإقطاع العسكري، ومن خلال ما ورد أن العرب يرفضون تمرين الجند بعمل من الأعمال لأنهم، كما يقول النص، «بمنزلة الجوارح التي لا يجوز أن تمرن على عمل من الأعمال ولا مهنة من المهن... فلما صارت الروم أهل 'تناية' وأصحاب فدان وزراعة ومهن وصناعة، نشأ الأبناء على ما عليه الآباء، فركنوا إلى الدعة وهابوا الحروب...».

3- أسماء الأعلام

لئن كان الاهتمام بالجوانب العسكرية وتراكم المعرفة التقنية في هذا المجال بالنسبة إلى العرب راجعًا إلى العداء بين الدولتين، وناتجًا من تواصل الاحتكاك الحربي بين الطرفين ومن تعدد الأسرى البيزنطيين الذين مثّلوا مصدرًا مهمًا من مصادر الأخبار، ونظرًا إلى ما كان الجيش البيزنطي يمثّله من رمزية عسكرية وسياسية استوجبت الاهتمام المتواصل، فإن النصوص العربية احتفظت بجملة من أسماء الأعلام، منها ما أمكن التعرف إليه، ومنها ما لا يزال مبهمًا. هذه الأسماء التي ذكرها العرب هي أسماء للنخبة البيزنطية، من أباطرة وقواد وسفراء، مع تركيز على سكان المناطق المقابلة للثغور الإسلامية. ويرد في بعض الأحيان ذكر الذين انتقلوا بصورة نهائية إلى العالم الإسلامي واندمجوا في صُلب المجتمع الإسلامي، من نساء ورجال عُرّبت أسماؤهم في كثير من الأحيان، وأطلقت عليهم أسماء عربية مع الاحتفاظ بكُناهم الرومية. إضافة إلى الأباطرة، يمكن أن نورد بعض الأسماء، مثل: جرجير، وجرجي والياتسو بلانتس وبرداس سقلاروس، بوتزاس والملاين ومنسترياتس، وهي أسماء موظفين سامين في البلاط البيزنطي، أو أسماء قواد عسكريين على الجبهة مع العالم الإسلامي، وهذا ما يسمح بالقول بأن للعرب اطلاعًا على الواقع البيزنطي تنظيميًا وبشريًا وحضاريًا.

4- أسماء حضارية/ دينية

إذًا، إلى جانب المعطيات السياسية والعسكرية، وهي معطيات عملية، تمكّن العرب في حيز قصير من الزمن من هضم الحضارة اليونانية، أكانت القديمة منها أم الوسيطة، في إطار الصراع الديني الذي نشأ بين العرب والروم بعد ظهور الإسلام. ولكن قبل أن نتحدث في جوانب من هذا الموضوع، يجب القول إن إحياء الفلسفة اليونانية القديمة تم في بيزنطة بعد انفجار الصراع الديني البيزنطي - البيزنطي، بين مُحبّي الصور ومُحطميها في ما بين عامَي 725 و843، فاستعمل المعارضون لعبادة الصور المنطق والعقل لإقناع خصومهم، وهذا ما جرى استغلاله في ما بعد في الصراعات الدينية الإسلامية - البيزنطية وما سمح للعرب بهضم هذا التراث واستعماله لمقارعة الروم بحجة المنطق. ولكني في هذا الملتقى ذي الطابع الفلسفي، وفي ظل توافر المختصين بهذا المجال، ارتأيتُ أن أستثني من

المصطلحات الحضارية المصطلحات الفلسفية التي انصهرت في اللغة العربية واهتم بها المعاصرون من المتخصصين بالفلسفة. ولعلنا في هذا الملتقى سنستمع إلى كثير من المصطلحات الفلسفية ذات الجذور اليونانية والتي يستعملها أهل الاختصاص بما يكفي من إدراك ومعرفة ومطلق سيطرة. لذلك، سنحاول الإشارة إلى مصطلحات أخرى لعلها مغمورة في الأذهان، وهي تتعلق بجوانب دينية وسياسية واقتصادية.

أ- المصطلحات الدينية

بفعل الاختلاف ووجود مجموعات دينية مسيحية مختلفة في العالم الإسلامي، اكتسب العرب معرفة بالمسائل الدينية المسيحية، مثل المؤسسات والطقوس والفِرق، وعبّروا عنها بالمصطلحات الملائمة لها في لغة أهلها، مثل:

- الدبتخة، وهي عبارة عن لوحة مزدوجة تُذكر فيها أسماء القديسين أو الأشخاص، أحياءً أكانوا أم أمواتًا، والذين تقام الصلاة باسمهم أو من أجلهم، كالإمبراطور أو الوالي...

- السنهودس، وهو أعلى سلطة دينية في المسيحية الشرقية، ويتمثل في اجتماع للأساقفة ينتخب فيه بطريرك القسطنطينية ويلتزم بقراراته.

- الجاثليق، وهو أعلى رتبة في الكنيسة الأرمنية وكنائس الشام والعراق، وكثيرًا ما استعمله العرب للضغط على الإمبراطورية البيزنطية بإجبارها على حرمان الإمبراطور من الديانة المسيحية، وهو ما سيكون سببًا في تقليص سلطته على الجوالي المسيحية المقيمة في المشرق الإسلامي.

ويمكن أن ندرج هنا مدينة القسطنطينية باعتبارها مركز الحكم وكرسي الكنيسة؛ فقد تراوحت تسميتها في النصوص العربية بين القسطنطينية، ومعناها مدينة قسطنطين، وإسطنبول، وهو الاسم الرسمي الذي كان البيزنطيون يستعملونه، وهو ما يمكن أن يترجَم بعبارة الحاضرة أو المدينة، خلافًا لما هو متداول لدى كثيرين من الباحثين العرب من أن التسمية جاءت بعد استيلاء الأتراك على المدينة، بينما هي موجودة في النصوص العربية منذ القرن العاشر الميلادي؛ إذ يقول المسعودي في كتاب التنبيه والأشراف: و«لثلاث سنين خلت من ملكه [قسنطين الأول] بنى مدينة القسطنطينية على الخليج الآخذ من بحر

الروم والشام ومصر، وذلك في الموضع المعروف بطبلا من صقع بوزنطيا وبالغ في تحصينها وإحكام بنائها، وجعلها دار مملكة له أضيفت إلى اسمه ونزلها ملوك الروم بعده إلى هذا الوقت غير أن الروم يسمونها إلى وقتنا هذا المؤرخ به كتابنا (956م) 'بولن'، وإذا أرادوا العبارة عنها أنها دار الملك لعظمها قالوا: 'استن بولن'، ولا يدعونها القسطنطينية، وإنما العرب تعبّر عنها بذلك». وأضاف ابن فضل الله العمري، في معرض حديثه عن أمراء الأتراك ببلاد الروم، أنها «تنتهي متشاملة إلى القسطنطينية، وتسمى اسطنبول، وهي قاعدة ملوك الروم». كما أن المقريزي تحدث عن وفود بعض السفارات على القاهرة، ومن ضمنها «سفير صاحب اسطنبول»، وهؤلاء المؤرخون هم كلهم من الذين لم يعيشوا سقوط القسطنطينية عام 1453، ما يسمح بالقول إن العرب كانوا على اطلاع وثيق بدقائق الواقع البيزنطي لفظًا ومعنًى.

ب- المصطلحات المالية

انطلاقًا من العلاقات التجارية التقليدية بين العرب والروم منذ عهود سابقة للإسلام، اقتبس العرب جملة من المصطلحات ذات الدلالة الاقتصادية والمستعمَلة في الجباية أو في المعاملات المالية، ونذكر بعض أمثلة ذلك، فنجد:

- القيراط، وهو وحدة مالية تبلغ قيمتها واحدًا من أربعة وعشرين جزءًا من الدينار البيزنطي، وتعادل فلسًا؛

- المِد، وهو وحدة كيل خاصة بالحبوب، وتُستعمل كذلك لقياس الأراضي بحساب المساحات المزروعة؛

- البقط، وهو جباية تدفعها دولة ضعيفة لدولة قوية، أو تدفعها مجموعات تعيش خارج فضاء الإمبراطورية كرمز الاعتراف بها والخضوع لسيادتها المعنوية، مثلما هو الشأن بالنسبة إلى المسيحيين الملكانيين الذين كانوا يعيشون في ظل الدولة الإسلامية. وقد استعمل العرب المصطلحات نفسها للتعبير عن وضعيات مشابهة، مثل صلح النوبة في عام 651، حين أرسل 300 عبد كبقط إلى الفسطاط ...

أما في ما يتعلق بالنقود، فقد استعمل العرب العملة البيزنطية شكلًا وتسمية

منذ ما قبل الإسلام. ولعل أكثر المصطلحات المالية استعمالاً هو الدينار، وهو لا يزال إلى يوم الناس هذا، واستُعمل للدلالة على معان مختلفة، كالقيمة الرفيعة، والجمال واللون الأصفر لأن الدينار البيزنطي هو وحدة نقدية ذهبية منقوشة. وجُمعت هذه المعاني في بيت من شعر العرب قاله النابغة الذبياني واصفًا رفقة له قُتلوا في إحدى المعارك:

كهول وفتيان كأن وجوههم دنانير مما شيف في أرض قيصر

خاتمة

في الختام، يمكن القول إن العرب في العصر الوسيط كانت تهزهم رغبة في الاطلاع، تحركها مشاعر دينية وسياسية جعلتهم يسعون لمعرفة الآخر بصفة مباشرة، والآخر في هذه الحالة هو الإمبراطورية البيزنطية بصفتها عدوًا مباشرًا أقر القرآن بوجوده وبقدرته على التجدد، ودعّم ذلك الحديثُ الذي يُنسب فيه إلى الرسول قوله: «أما الروم، ففي كل قرن يظهر لها قرن»، ما جعل العرب يسعون للتعرف إلى هذا الآخر المختلف؛ ففي الدين هو الآخر المسيحي، وفي الجنس هو الآخر الرومي، وفي اللون هو من بني الأصفر. والتعرف إلى هذا الآخر لم يكن جزئيًا، بل هو نظرة كلية شملت الدين والسياسة والعادات والسلوك والحياة اليومية، وشملت اللغةَ أيضًا، عملًا بأن «من تعلم لغة قوم أمِنَ شرّهم» حتى وإن لم يكن الآخر شرًا مطلقًا.